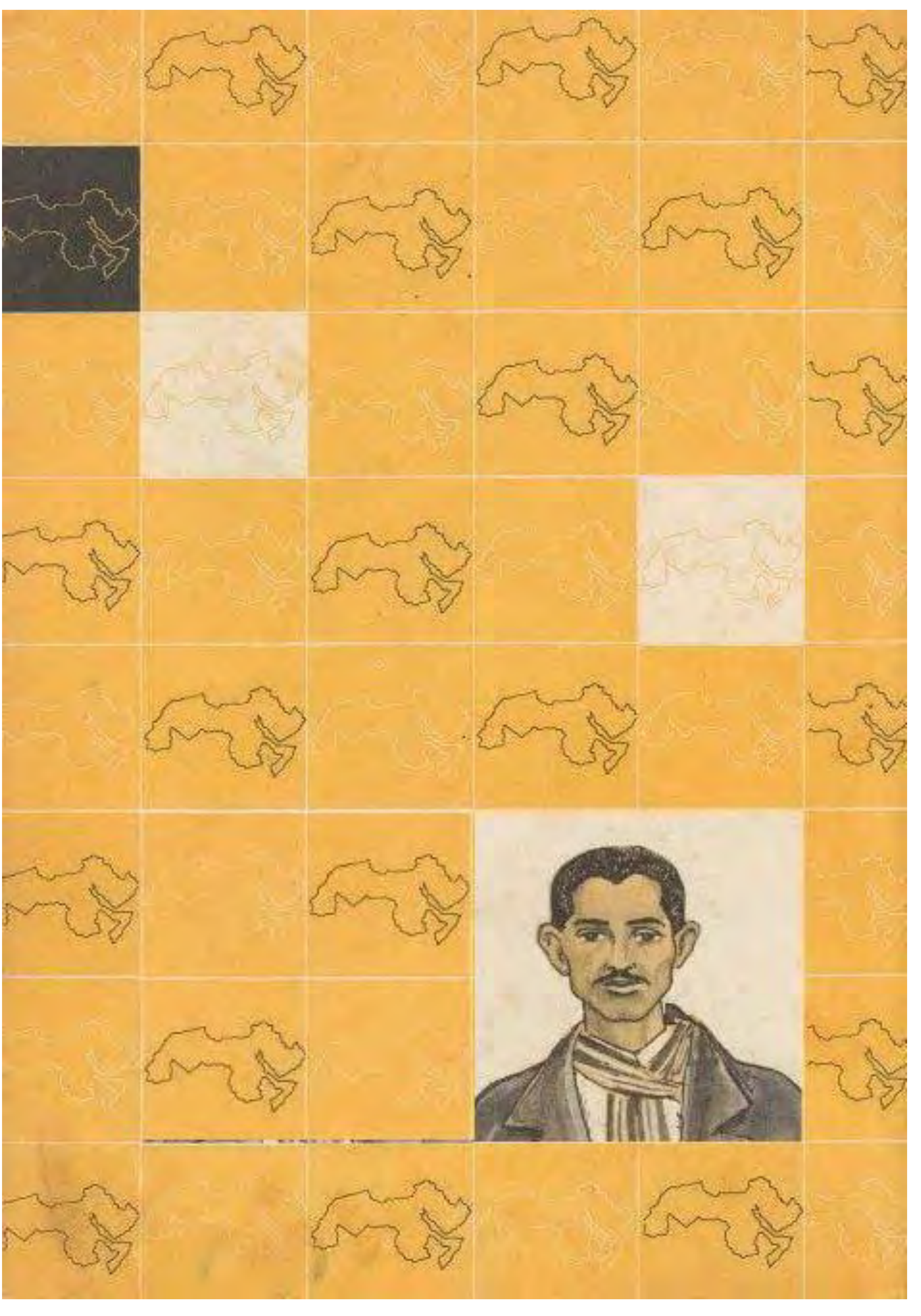


سائق الشاحنة

. مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . **١** سلسلة الأبطال



سائق الشَّاحِنَة



تأليف : شريف الرّاس

الغلاف : طالب مكي

رسوم : رشاد سليم

مكتبة الطفل
دائرة ثقافة الاطفال
وزارة الثقافة والاعلام
الجمهورية العراقية





بعضُهم يُحبّونَ أن يَسوقوا السيّارَةَ بِسُرْعَةٍ . ومِنْهُم محمد علي .

محمد علي يُحِبُّ أنْ يَسوقَ السيّارَةَ بِسُرْعَةٍ . حتى صارَ أهلُ بلادِ الحجازِ يقولون عَنْهُ : السّائقُ الذي يُسْرِعُ كثيراً . وبَعْضُهُم كان يُسَمّيهِ : سائقَ الشاحِنَةِ الذي يُثيرُ غباراً كثيراً . ذلِكَ لِأنَّ الطُرُقاتِ . في ذلكَ الزّمَنِ . كانَت كلُّها طرقاتٍ تُرابِيَّةً . فقِصَّتُنا الحقيقيّةُ هذهِ جرَتْ حَوادِثُها في سنَةِ ١٩٢٨ . وفي ذلِكَ الزّمَنِ لم تكنْ في بلادِ الحجازِ طُرُقاتٌ معبّدةٌ بالاسفلتِ . لأنَّ السيّاراتِ كانَتْ قليلَةً جداً .

إذن . في ذلكَ اليوم . يوم ١٠ مايس ١٩٢٨ كانَ محمد علي يسوقُ شاحنَتَهُ العتيقةَ بِسُرْعَةٍ . يَضْغَطُ على البنزين . . يَضْغَطُ أكثر . أسرع . . أكثر . . والشّاحِنَةُ تئِنُّ تحتَ حِمْلِها الثَّقيلِ . ولكنَّ سائِقَها يُريدُ لها أنْ تُسابِقَ الرّيحَ . فالطَّريقُ التُرابيّةُ هنا بينَ مكّةَ المكرّمةِ والمدينةِ المنوّرةِ سهْلَةٌ مِثْلُ راحةِ

الكَفَّ. والسيّارَةُ تَرْكُضُ.. تَجْرِي.. تُسْرِعُ. ومحمد علي يغنّي وهُوَ مُمْسِكٌ بالمُسْكانِ أيْ المِقْوَدِ. إنَّهُ يُدَنْدِنُ بأغنيةٍ شَعْبِيَّةٍ تُونِسِيَّةٍ جَمِيلَةٍ. وكانَ محمد علي يُحِبُّ الأغاني الشَّعبيَّةَ كثيراً.





وَلكِنَّ الأُغْنِيَةَ الجَمِيلَةَ انْقَطَعَتْ فَجأَةً.

بَلْ إنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَوَقَّفَ فَجْأَةً.

الشَّاحِنَةُ الثَّقِيلَةُ انْقَلَبَتْ عِنْدَ مُنْعَطَفٍ كانَ مُخْتَفِيًا خَلْفَ كُثْبانِ رِمالٍ. انْقَلَبَتْ ثُمَّ تَدَهْوَرَتْ في الوادي وتَبَعْثَرَ كُلُّ ما فِيها. صارَتْ حُطامًا. ومحمد علي ذاتُهُ لَمْ يَجِدوا جُثَّتَهُ إلاّ بَعْدَ مُدَّةٍ. كانَتْ مَرْمِيَّةً خَلْفَ صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ في قَعْرِ الوادي. وَلَمْ يَعْرِفوهُ. قالوا: مِسْكينٌ.

سَأَلوا: مَنْ هُوَ؟

وَجَدُوا في جَيْبِهِ صورَةَ طِفْلَةٍ جَميلَةٍ تَبْتَسِمُ. قالوا: رُبَّما كانَتْ هذِهِ الطِّفْلَةُ الجَميلَةُ ابْنَتَهُ.

وَجَدُوا في جَيْبِهِ بِطاقَةَ هُوِيَّةٍ مَكْتوبَةً بالفَرَنْسِيَّةِ. البِطاقَةُ تَقولُ: إنَّ هذا الشَّابَّ اسْمُهُ محمد علي بن المختار الحامي، وإنَّهُ مِنْ مَواليدِ قَرْيَةِ القَصْرِ في أرْيافِ قابِسِ بِتونِسَ سَنَةَ ١٨٩٣، وإنَّهُ يَحْمِلُ شَهادَةَ: دكتور في الاقْتِصادِ السِّياسِيِّ.

قالَ ضابِطُ الشُّرْطَةِ: مُسْتَحيلٌ.. غَيْرُ مَعْقولٍ. دُكْتورٌ في الاقْتِصادِ السِّياسِيِّ يَعْمَلُ سائِقَ شاحِنَةٍ؟. لابُدَّ أنَّ في الأَمْرِ سِرًّا خَطيرًا. يَجِبُ أنْ نَعْرِفَ حَقيقَةَ هذا الرَّجُلِ.

وهكَذا بَدأَتِ المَساعي لِجَمْعِ ما يُمْكِنُ جَمْعُهُ مِنْ مَعْلوماتٍ عَنْ سائِقِ الشّاحِنَةِ.





قالَ صاحِبُ مِرآبٍ لِتَصْليحِ السَّيّاراتِ في مدينَةِ تونس العاصِمَةِ :

أنا أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . محمد علي . حِيْنَ كانَ وَلَداً صَغيراً ، جاءَ في ذاتِ يَوْمٍ إلى هذا المِرْآبِ وقالَ :

– هَلْ تُشَغِّلُني عِنْدَكَ ؟

تَأمَّلْتُ شَكْلَهُ . كانَ فَتىً صَغيراً ، نَحيفاً ، فَقيراً جداً . (وكانَ جائِعاً جداً) . هكذا قُلْتُ لِنَفْسي وأنا أتَأمَّلُهُ يَوْمَذاكَ . كانَ يَرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ ، أوْ رُبَّما بِسَبَبِ الجُوْعِ .

سَأَلْتُهُ : ماذا تَعْرِفُ عَنْ تَصْليحِ السَّيّاراتِ ؟

قالَ : لا شَيءَ . لكِنَّني أُحِبُّ السَّيّاراتِ كَثيراً . وأَعِدُكَ بأنْ أتَعَلَّمَ بِسُرْعَةٍ .

أشْفَقْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : أُدْخُلْ .

في البِدايَةِ أشْفَقْتُ عَلَيْهِ . . وبَعْدَ أيامٍ شَعَرْتُ بأنَّني أُحِبُّهُ . . ثُمَّ صِرْتُ مُعْجَباً بِهِ إلى حَدِّ أنَّني كُنْتُ أنْظُرُ إلَيْهِ ، أثْناءَ

العَمَلِ . وأتمنّى لَوْ كانَ أيٌّ مِنْ أولادي مِثْلَهُ . فَقَدْ كانَ شُعْلَةَ ذَكاءٍ . شُجاعاً . نَشيطاً . وكانَ يَعْشَقُ السيّاراتِ . لذلكَ فإنَّهُ تَعَلَّم أسرارَها بِسُرْعَةٍ . وَلَمْ تَمْضِ أيّامٌ أو أسابيعُ إلاّ وَقَدْ صارَ هذا الفَتى النَّحيفُ أمْهَرَ عامِلٍ عِنْدي في المِرآب . كانَ يُشَخِّصُ عِلَّةَ كُلِّ سَيّارَةٍ بِسُرْعَةِ البَرْقِ . وكانَ تَشْخيصُهُ صائِباً دَوْماً . . والعَجيبُ أنَّ بَقِيَّةَ عُمّالِ المِرآبِ وَهُم أكْبَرُ مِنْهُ سِنّاً وأكْثَرُ خِبْرَةً كانوا يُحِبّونَهُ بَدَلاً مِنْ أنْ يَغارُوا مِنْهُ أو يُعاكِسُوهُ . . بَلْ إنَّهُمْ أكْثَرَ مِنْ ذلكَ كانوا يَلْتَفّونَ حَوْلَهُ ويَتَعاطَفونَ مَعَهُ . وصاروا يُسَمُّونَهُ (الزعيم) . و (تَعالَ يازَعيم) و (اذْهَبْ يازَعيم) . .

وكانَ (الزَّعيمُ) الصَّغيرُ يَقولُ لِرِفاقِهِ العُمّالِ الكِبارِ : أنْتُم تُريدُونَ أنْ تَتَخَلَّصُوا مِنْ هذا الفَقْرِ الذي يَفْتِكُ بِنا جَميعاً . . صَحْ ؟ ؟

فيُجيبُونَهُ : صَحْ .

فيقولُ : إذن عَليكُمْ أنْ تَبدأوا مِنْ تَعلُّم القراءَةِ والكتابَةِ . . ادرُسُوا في اللّيلِ . . فأنا أتَعَلَّمُ في اللَّيلِ . .

وذاتَ يَوْمٍ سَأَلَهُم : أنتُمْ تُريدونَ أنْ نَطْرُدَ المحتَلّينَ الفَرَنْسيينَ مِنْ بِلادِنا . . صَحْ ؟

أجابُوهُ بصوتٍ واحِدٍ : صَحْ .

فقالَ : إذَنْ عليْكُمْ أنْ تُقاطعوا كُلَّ فرنْسيٍّ موجود هنا في بِلادِنا . قاطعوهُمْ .. لا تتعاملوا معَهُم أبداً .

مِنْ أينَ يجيءُ هذا الوَلَدُ بِكُلِّ هذهِ الأفكار الّتي كانَتْ تُعجِبُ العُمّالَ كثيراً ؟

استدْعَيْتُهُ وقُلْتُ لهُ : أولادي مِثْلُكَ . في مثلِ سنِّكَ . ولكنّهُم لا يقولونَ مثلَ هذا الكلام .

قالَ : لأنّهُم يتعلّمونَ في مدارسَ أجنبيّةٍ .

قُلْتُ : إرجعْ إلى عملِكَ .. وإيّاكَ ثُمَّ إيّاكَ أنْ تُحرّضَ العُمّالَ بمثلِ هذهِ الأفكارِ بعْدَ اليومِ .. وإذا سمِعْتُ أنّكَ



رَفَضْتَ تَصْليحَ سَيّارَةِ أيِّ زَبونٍ لأنَّهُ فرنسي فإنِّي أطْرُدُكَ .
أتَدْري لماذا ؟ . . لأنَّ مَعيشَتَنا قائِمَةٌ على تَصْليحِ السَيّاراتِ .
والسيارات كُلُّها للفرنسيين . . فماذا يَحْدُثُ لَوْ قاطَعْناهُم ؟ . .
نَقْعُدُ بِلا عَمَلٍ . . مسيو بونشار وَحْدَهُ عِنْدَهُ حوالَي عشرين
سَيّارَةً صغيرةً وكبيرةً . فَهُوَ صاحِبُ مَزارِعَ واسِعَةٍ . كرومُ عنبٍ
وزيتونٍ وحقولٌ زراعيةٌ . . وسَيّاراتُهُ تَنْقُلُ محاصيلَهُ . . فَهَلْ
نُقاطِعُهُ ونَرْفُضُ التَعامُلَ مَعَهُ ؟

أتدرون بِمَ أجابَ ؟ . . قال : نَعَمْ . . نُقاطِعُهُ .
قُلْتُ : هَلْ نُقاطِعُهُ لِأنَّهُ مِنَ الذينَ يَحتَلُّونَ بِلادَنا ؟



قالَ : نَعَمْ . . ونُقاطِعُهُ لِأَنَّهُ لِصٌّ أيضاً .

قُلْتُ مُسْتَغْرِباً : لِصٌّ ؟ . . مسيو بونشار أغْنى فَرنسيّ في هذهِ المَنْطَقَةِ . . لِصٌّ ؟ . . ماذا سَرَقَ ؟

قال : سَرَقَ أراضينا الزِّراعيَّة . . قُوّاتُ الاحتلالِ الظّالِمَة قَتَلَتْ مَنْ قَتَلَتْ مِنْ فَلاّحينا وَطَرَدَتْ مَنْ طَرَدَتْ مِنَ القُرى وشَرَّدَتْهُم بالرَّصاصِ والدَّبّاباتِ والطائِراتِ . وصِرْنا نَحْنُ أهلَ البِلادِ أُجراءَ وصاروا هُم – المحتَلّينَ – أصحابَ الأراضي الزِّراعيةِ . . إنَّهُم أكْثَرُ مِنْ لُصوصٍ . . إنَّهُمْ مُغْتَصِبُونَ ظالِمونَ . . وعَلَيْنا أنْ نَطْرُدَهُمْ .

قُلْتُ غاضِباً : إسمَعْ ياوَلَدْ . . هذا الكلامُ أكبرُ مِنْكَ . . عُدْ إلى عَمَلِكَ وابْقَ ساكِتاً وإلاّ طَرَدْتُكَ . . وإنْ طَرَدْتُكَ فسأُخْبِرُ أهْلَ السوقِ بِأَمْرِكَ فلا يَقْبَلُ أيٌّ مِنْهُمْ أنْ يُشغِّلَكَ عِنْدَهُ . : فَتَموتُ مِنَ الجُوعِ . . هَلْ فهِمْتَ ؟ !

ذَهَبَ الوَلَدُ إلى رِفاقِهِ العُمّالِ . وكانوا يَعْمَلُونَ في تَصْليحِ سَيّارةٍ كَبيرةٍ مِنْ شاحِناتِ مَزْرَعَةِ مسيو بونشار . وقالَ لَهُمْ : أنتُم تُريدونَ أنْ نَطْرُدَ المحتَلّينَ الأجانِبَ مِنْ بِلادِنا وأنْ نَتخلَّصَ مِنَ الفَقْرِ . . لكِنْ هَلْ تعرفُونَ مِنْ أيْنَ نَبْدأُ ؟ . . نَبْدأُ مِنْ هُنا . . نَتوَقَّفُ عَنْ إصلاحِ هذهِ السَّيارةِ . . نُعْلِنُ الاعتِصابَ

أيْ الاضْرابَ . . نَجْعَلُ كُلَّ العُمّالِ التونسيين يُضْرِبُونَ عَنْ خِدْمَةِ سَيّارَةِ أيِّ مُحْتَلٍّ . .

سَأَلوهُ : وِمِنْ أيْنَ نأْكُلُ وَنَشْرَبُ ؟

وقَبْلَ أنْ يَشْرَحَ لَهُمْ الجوابَ استَدْعَيْتُهُ وَدَفَعْتُ لَهُ أجورَهُ وصَرَفْتُهُ مَعَ ألفِ سَلامَةٍ .. عَدَمَ المؤاخَذَةِ . . فأنا لا أُحِبُّ المشاكِلَ وَوَجَعَ الدِّماغِ . والشُّبّاكُ الذي يأتيكَ مِنْهُ الريحُ سُدَّهُ فَتَسْتَرِيح . .

لكِنَّ قَلْبي ظَلَّ مَيّالاً إلَيْهِ . فَرُحْتُ أسأَلُ عَنْ أخبارِهِ . قِيلَ لي : إنَّهُ صارَ حَمّالاً في سُوقِ الخُضْرَواتِ المركَزِيِّ عَنْدَنا هُنا في تُونسَ العاصمةِ .

* * *



قالَ صاحِبُ دُكانٍ في سوقِ الخُضْرواتِ المركزيِّ بمدينة تونس :

أنا أخْبِرُكُم عَنْهُ .. محمد علي . حينَ كانَ وَلَداً صغيراً في سنِّ العاشِرةِ ، جاءَ في ذاتِ يومٍ إلى هذا الدُّكانِ . وكانَ يبْدو عَلَيْهِ مِنْ ثِيابِه أنَّهُ آتٍ مِنْ أريافِ الجَنوبِ البعيدةِ . وكانَ بائِساً جداً .. طِفْلٌ نَحيفٌ بائسٌ يسألُكَ : (هَلْ تشغِّلُني عِنْدَكَ ؟) .. فماذا أقولُ لَهُ ؟

ابْتَسَمْتُ وقُلْتُ لَهُ : الأرزاقُ بيدِ اللهِ ياوَلَدي .. اقعُدْ هنا في بابِ الدُّكانِ . فإذا جاءَ مَنْ يشْتَرِي مِنْ عندي ، وأرادَ أنْ تحْمِلَ لَهُ الخُضْرَواتِ إلى بيتِه . فاحْمِلْها وانْتَفِعْ بما يمنحُكَ مِنْ أجْرٍ قليلٍ ..

وهكذا كانَ .. وصارَ محمد علي ، وهُوَ ابنُ عشر سنواتٍ ، حَمّالاً في السُّوقِ . وصارَ أهْلُ السُّوقِ يُحِبُّونَهُ . وفَهِمْنا قِصَّتَهُ . فهُوَ قَدْ جاءَ مِنْ بَلْدَتِهِ الحامةِ إلى هنا مُهاجِراً مع

أبيه . أو حسب تعبيره (هاربين من الفقر) .

- إذنْ فأنْتَ تعيشُ هنا مع أبيك ؟

- نعمْ . .

- وأمُّك ؟ . . وأخواتُك ؟ . أليس لك اخوةٌ ؟

- بلى . . لي ستّةُ أخوة أصْغرُ منّي . . وهُمْ يعيشون مع أمّي هُناكَ في بلْدتنا الصّغيرة في أرياف الجنوب البعيدة . . وأبي وأنا نعْملُ هنا لنُرْسل لهُمْ بعْضَ النُّقود . .

أحْببْتُ هذا الطّفْل المُكافح وعطفْتُ عليْهِ وأرَدْتُ أنْ أساعِدَهُ . لكنّهُ كانَ يرْفضُ الصّدقات . . كانَ شديد الاعتزاز بنفْسِهِ . قُلْتُ لَهُ ذاتَ مرّةٍ : أُحِبُّ أنْ أُقدِّم إليْك هديّةً تكونُ أنْتَ بحاجةٍ إليها فماذا تطْلُبُ ؟

قال : كِتابٌ . .

فضحِكْتُ . . كانَ محمد علي يُحِبُّ الكُتُب ويُحِبُّ أغاني الفلاّحين . . كانَ يحْمِلُ الخُضْروات على ظهْرِهِ وفي عُبّه كتابٌ وعلى فمِهِ لَحْنٌ حزينٌ . . وكانَ يقْرأُ كثيراً . . يجْلِسُ هُنا في باب الدُّكّانِ يقْرأُ بصُعوبةٍ ويسألني عَنْ تهْجئةِ بعْضِ الكلمات . كُنْتُ أقولُ لَهُ : يُعْجِبُني تعلُّقُك بهذِهِ الكُتُب . . ماذا تجِدُ فيها ؟

- لَمْ أجِدْ فيها بعْدُ الشيءَ الذي أبْحَثُ عنْهُ .



- وماهو الشيء الذي تبحث عنه يا محمد علي؟
- أبحث في الكتب عن شيء مهم جداً. أريد أن أعرف لماذا نحن أهل هذه البلاد فقراء؟ ولماذا الأجانب الذين يحتلون بلادنا أغنياء.

وكنت أضحك وأقول له: لكن هذه الكتب العربية القديمة تتحدث عن تفسير القرآن، والأشعار، وتاريخ الأجداد.

فكان يجيبني: هذه الكتب فيها كل شيء.

إلى أن اختفى هذا الطفل الظريف من السوق ذات يوم. انقطع عنا عدة أسابيع. ثم علمت أنه وجد صنعة عند معلم لتصليح السيارات. ففرحت بذلك. هذه صنعة مفيدة. لكن محمد علي ما لبث أن رجع إلينا غاضباً. فهمت منه أن مصلحي السيارات رفضوا تشغيله عندهم مالم يحمل من معلمه السابق ورقة تشهد بحسن سلوكه. يومها قال لي غاضباً:

- أصحاب المصالح متضامنون معاً. إذن، بالمقابل، العمال يجب أن يكونوا متضامنين. لكن كيف؟ كيف نجد طريقة لخلق تضامن بين الفقراء؟

قلت له: إلى هذا الحد أنت غاضب على ذلك المعلم

الذي طردكَ من العمل عندَهُ ؟

قالَ : على العكسِ تماماً .. أنا لستُ حاقداً عليه .

قلتُ : واللهِ إنني لا أفْهمُ عليْكَ .

قالَ : معكَ حقٌّ .. فأنا لا أفهمُ على نفْسِي .. يعْني : لنفْترِضْ أنني صِرْتُ أحْسَنَ مُصَلِّحِ سياراتٍ في البلدِ .. لنَفْترِضْ أكْثرَ مِنْ ذلكَ أنني صِرْتُ صاحِبَ سيّارةٍ كبيرةٍ ورَبحْتُ منْها كثيراً فساعدْتُ أبي واخوتِي .. فهلْ هذا حلٌّ ؟ .. أبداً .. فما دامَ المحتلُّونَ الأجانِبُ هنا في بلدِنا فسيظلُّ الفَقْرُ والبُؤْسُ والجُوعُ والحرِمانُ ..

قُلْتُ : هذهِ أفكارٌ أكْبرُ منْكَ يا محمد علي .

قالَ : وأنا كَبرْتُ أيضاً .. صِرْتُ شاباً .. وصِرْتُ أقْرأُ الكثيرَ منَ الكُتُبِ والمَجلاّتِ والصُّحُفِ العَرَبيّةِ .. والفرَنْسيّةِ أيضاً ..

فَقُلْتُ مُبْتسِماً : وَهلْ وجدْتَ الحَلَّ الذي كُنْتَ تَبْحَثُ عنْهُ ؟

قال : بَعْد ..

ثُمَّ انقَطعَ عَنّي محمد علي بَعْدَ ذَلكَ زَمناً .. إلى أنْ كانَتْ حوادِثُ العُدوانِ الايطالي على ليبيا . في سنة ١٩١١ . فسمِعْتُ أنّهُ تطَوَّعَ للقِتالِ مَعَ المجاهِدِينَ هُناكَ ..

سَأَلْتُ باستِغْرابٍ : ولكنْ مِنْ أيْنَ لَهُ ثَمنُ البُنْدُقِيَةِ ؟ . .
ومتى تَدَرَّبَ على السِّلاحِ ؟

قالوا : تَطَوَّعَ في الهلالِ الأحْمَرِ التونسي سائِقَ سيّارَةٍ . . أَخَذَ شاحِنَةً مُحَمَّلَةً بالأدوِيَةِ وسافَرَ بِها مِنْ تونسَ إلى طَرابُلسَ . .

* * *



الوَلَدُ الغاضِبُ يسافِرُ الى الحَرْبِ

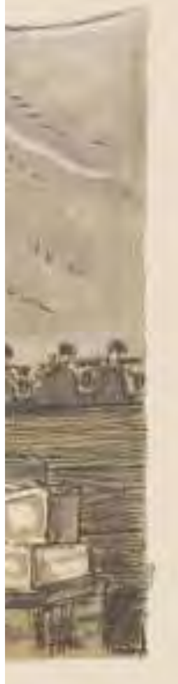
قالَ رئيسُ جمعية الهلالِ الأحمرِ التُّونسي :

أن أخبرَكُم عنهُ : محمد علي حين كان شابًا في حوالي الثامنة عشرة من العُمرِ . جاءَني ذات يومٍ وسألني : هلْ تقبلُون مُتطوِّعين ؟

قلتُ لهُ : بلْ نحنُ - باركَ اللهُ فيكَ - نبحثُ عن مُتطوِّعٍ معيَّنٍ . نريدُ سائقَ سيّارةٍ . تجمَّعتْ لدينا كميّات كبيرة من الأدويةِ والمؤنِ والثّيابِ التي تبرَّع بها أهلُ تونس لإخوانِهم أهلِ ليبيا الذين يَصُدُّون عدوان الإيطاليين على بلادهم .

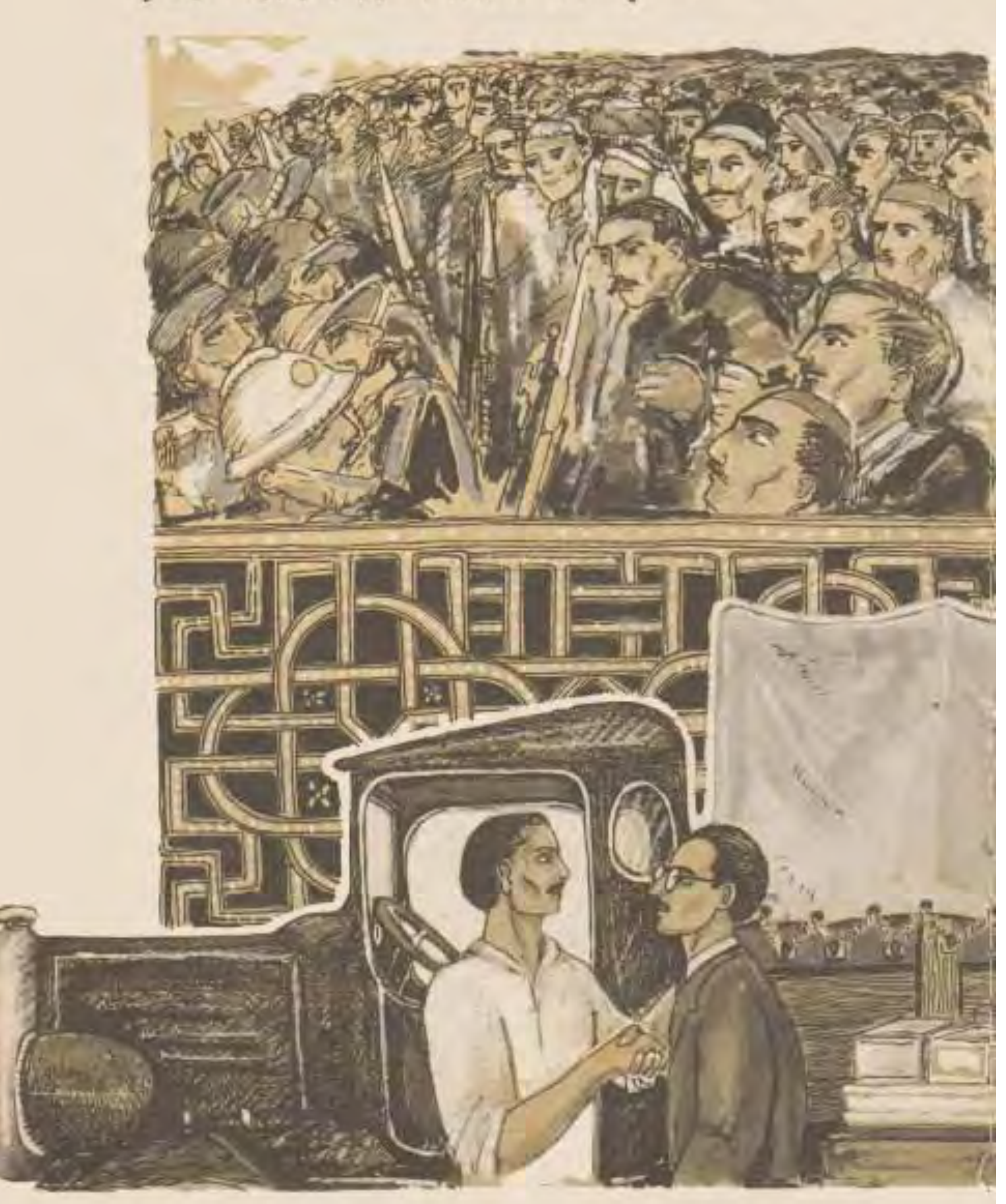
قالَ : أنا أحسنُ سائقِ سيّارةٍ .

قلْتُ : باركَ اللهُ فيكَ . هلْ سبقَ لكَ أنْ سافرْتَ منْ تونسَ الى ليبيا في الدُّروبِ الصَّحراويّةِ ؟ إنّنا بحاجةٍ إلى سائقٍ قديمٍ يعرفُ كيفَ يتركُ الطُّرقاتِ البرّيّةَ تهرُّبًا منْ دوريّاتِ المستعمرين . أنتَ تعرفُ : الفرنسيون لنْ يسمحوا بإرسالِ هذهِ النَّجداتِ البسيطةِ لإخوانِنا المجاهدين في ليبيا .



قالَ : لا عَلَيْكَ يا سيِّدي . إتكَّلْ على اللهِ وَعَليَّ .

أخذ محمد علي سيّارَةَ الأدويةِ والمُؤَنِ والثِّيابِ . . وسافَرَ



غابَ حوالي أسبوعٍ .

فالدَّرْبُ طويلٌ وصعْبٌ . وحين رجع كان أشدَّ حماسةً . قالَ لي . ونحنُ نملأُ سيّارة الإسعافِ بوجْبةٍ ثانيةٍ منَ الأدويةِ والمُؤَنِ :

« إنَّ أكْبَرَ مُساعَدَةٍ نُقَدِّمُها لإخوانِنا الليبيين الذينَ يُقاتِلونَ المسْتَعمِرينَ الايطاليِّينَ هناكَ هُوَ أنْ نُشْعِلَ ثَوْرَةً مُسلَّحةً ضِدَّ المُسْتَعمِرينَ الفرنسيِّينَ هُنا .. فَعَدُوُّنا واحِدٌ . الفرنسيّونَ والإيطاليّونَ والإنكليز وكُلُّ أعداءِ العَرَبِ يَدٌ واحِدةٌ .. جَبْهةٌ واحِدَةٌ .. ونَحْنُ كُلَّ العَرَبِ ضَحِيَّةٌ واحِدَةٌ .. هَلْ أُفسِّرُ لَكَ كلامي بِتَعابيرَ أوضَح : مِثْلَما أنَّهُ لا يُمكِنُ الخَلاصُ مِنَ الفَقْرِ العامِّ إلاّ بتكْتيلِ العُمّالِ في نَقاباتٍ تُوحِّدُ قِواهُم ضِدَّ ظالِميهم .. كذلكَ لا يُمْكِنُ الخلاصُ مِنْ وَباءِ الاستعمارِ إلاّ بتَكْتيلِ كُلِّ البَنادِقِ في جَبْهَةٍ واحِدَةٍ ضِدَّ ظالمي أُمَّتِنا ... ثُمَّ قالَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ بِخَجَلٍ : «لا أدري .. لَمْ أعْرِفْ كَيْفَ أُوَضِّحُ لكَ نَظَرِيَّتي ..» وَصافَحَني مُوَدِّعاً وَقادَ سيّارَةَ الهِلالِ الأحْمَرِ وَذَهَبَ . وبَعْدَ أُسْبوعٍ بَعَثَ السّيارَةَ إلينا مَعَ سائِقٍ آخَرَ عَلِمْنا مِنْهُ أنَّ محمد علي بَقِيَ في ليبيا . حَمَلَ البُنْدُقِيَّةَ وانْخَرَطَ في صُفوفِ المجاهِدينَ ... ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنّا أخْبارُهُ .

* * *



قالَ خادمُ مَسْجد قَرْيَة أمِّ الزَّيتونِ في الجَبَلِ الأخضَرِ :

أنا أُخْبِرُكُم عنْ هذا الشّابِ التُونسي محمد علي . فقدْ كانَ ينامُ عِنْدي في غُرْفَتي بالمسجدِ في مُعْظَمِ الأحيانِ . كانتْ فرحَتُهُ لا توصَفُ عِندما حَصَلَ على بُنْدُقية . وكانَ المجاهِدون يُحِبّونَهُ ويَحترمونَهُ ويتحدّثون عَنْ شَجاعَتِهِ . وكانَ يندَفِعُ للقيامِ بأصعبِ المَهامِّ في معاركِ القِتالِ . وكانَ يَغْضَبُ كثيراً ويَحْزَنُ إذا هاجَمَتْنا سَيّاراتٌ مصَفَّحةٌ ولم نَتمكَّنْ مِنْ تَدْميرِها أو تَعْطيلِها . وكانَ يَفْرحُ كثيراً عِنْدَما نَغْنَمُ سَيّارَةً صالحةً للاستعمالِ . فقدْ كانَ يُحِبُّ السَّيّاراتِ كَثيراً . وكانَ يَقولُ : يَجِبُ عَلينا نحنُ العربَ أنْ نَصْنَعَ كُلَّ هذهِ الأشياء . . وما لمْ نفعلْ ذلكَ فإنَّ الّذينَ عِنْدَهُم مَصانعُ سوفَ يَظَلّونَ يَعْتَدُونَ عَلينا في كُلِّ مكانٍ . .

وكانَ حَديثُهُ يُعْجِبُني كَثيراً . . سألْتُهُ ذاتَ مَرَّةٍ :

– لماذا لَمْ تَتَزَوَّجْ يا محمد علي ؟ . . تونسُ مشهورةٌ بالفَتَياتِ

الجَميلاتِ .

ضَمَّ محمد علي بُنْدُقيَّهُ إلى صَدْرِهِ بِحَنانٍ وقالَ : هذه حَبيبَتي . .

وأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَفِزَّ غَضَبَهُ ذاتَ مساءٍ . ونحنُ نشربُ الشّاي . فقلتُ لهُ :

ما أعجبَ أَمْرَكَ يا صاحبي . . تَتْرُكُ نَعيمَ الحَياةِ في تونسَ وتأتي إلى جحيمِ الحَرْبِ هُنا في ليبيا ؟ !

قالَ : كَمْ مرةً يجبُ عليَّ أَنْ أُذكِّرَكَ بِأَنَّ هذهِ بِلادي . وأَنَّ المستعمِرَ اللَّعينَ عَدُوِّي ؟ .

فإذا كُنْتُ لا أَستطيعُ أَنْ أُقاتِلَ المُسْتَعْمِرَ الفرنسيَّ في تونسَ فما هي حُجَّتي غداً أمامَ اللهِ إذا تقاعَسْتُ عَنْ مُقاتَلَةِ المُسْتَعْمِرِ الايطاليِّ هُنا في ليبيا ؟ . إنَّ العربيَّ مُلْزَمٌ بِأَنْ يُقاتِلَ أيَّ عَدُوٍّ يَحْتَلُّ أيَّ جُزْءٍ مِنْ هذا التُّرابِ الطاهِرِ . . الجهادُ يا أبا عبدِ القادرِ فَرْضُ عَيْنٍ وَلَيْسَ فَرْضَ كِفايَةٍ . .

ابْتَسَمْتُ إذْ رأيْتُ هذا الشّابَّ النَّحيفَ الضَّعيفَ يُحَدِّثُني بِلُغَةِ إمامِ المسجدِ . فهذهِ العبارةُ مَعْناها أَنَّ الجهادَ واجِبٌ على كُلِّ مُواطِنٍ . . ولا يَكْفي أَنْ يُجاهِدَ فردٌ مِنَ العائِلَةِ مَثلاً بَدَلاً عَنِ العائلَةِ كُلِّها . .

مِنْ أينَ حَفِظَ محمد علي مِثْلَ هذهِ التعابيرِ الخاصَّةِ بِرجالِ الدِّينِ ؟ .

كُنْتُ انظُرُ إليهِ فيُخيفُني بَريقُ الذَّكاءِ في عَيْنَيهِ . . وكانَتْ عَيْناهُ



واسعتين . رُبّما لأنَّ وَجْهَهُ نحيلٌ . كُلُّ جِسْمِهِ نَحيلٌ ضعيفٌ كأنَّهُ يشكو مِنْ جُوعٍ أبديٍّ . . وَقدْ تدهْورتْ حالَتُهُ الصّحيّةُ بَعْدَ سنةٍ من القتالِ . فَأَوْفدَهُ المجاهدون مَعَ قافلةٍ كانَتْ تَنْقُلُ الجَرْحى إلى القاهِرةِ للمُعالجَةِ هُناك . . فأخوانُنا أهلُ مصْرَ لمْ يَبْخَلوا علينا بِأيّةِ مُساعَدةٍ أوْ عَوْنٍ . . ولكنَّ محمد علي رَفض مُغادَرةَ السّاحَةِ وأصرَّ على أنَّهُ ليس جَرِيحاً أو مَرِيضاً . فَقُلنا لَهُ : سافِرْ مَعَهُمْ إلى مصْرَ ، إنْ لَمْ يَكُنْ للمُعالَجةِ فللاستِجمامِ . لأنَّ مِنْ حَقِّ المقاتِلِ أنْ يأخُذَ إجازَةَ استِراحَةٍ .

كانَ ذلكَ في يومٍ مِنْ أواخرَ عام ١٩١٢ . وحَدَّثني قَلْبي بأنّني لَنْ أراهُ بَعْدَ ذلكَ اليومِ . . فشَعَرْتُ بِحُزْنٍ عميقٍ وأنا أُعانِقُهُ مُوَدِّعاً . . تُرى أيْنَ صارَ هذا الإنسانُ الرائعُ ؟

* * *



عامل في النهار وعالِمٌ في الليل

قالَتْ سيِّدةٌ ألمانيةٌ عجوزٌ ، صاحبةُ فُنْدُقٍ صَغيرٍ في الحيِّ الغَربيِّ ببرلين :

أنا أخبركم اِبْنَ ذَهَبَ محمد علي الحامي أو القابسي بَعْدَ ذلِكَ . أقامَ فَتْرةً في بلاد مصر التي أحبَّها كثيراً . ثُمَّ سافرَ الى فلسطينَ وسوريا ولُبنانَ . ولَمْ يَصِلْ الى برلينَ إلاَّ في سنَة ١٩١٨ . وكُنّا في أواخر الحَرْبِ العالميةِ الأولى . .

إنني لَنْ أنسى أبداً ذلك اليوم الأول . كانتِ الدنيا تُمطِرُ . وأنا قاعدةٌ أمامَ المدفأةِ في رُدْهةِ الضّيوف بالفُندق . فُتحَ البابُ ودخلَ شابٌ نحيلٌ وألقى تحيةَ المساء باللغةِ الفرنْسية . قلْبي انقبَضَ وشَعَرتُ بانكماشٍ حيالَهُ .

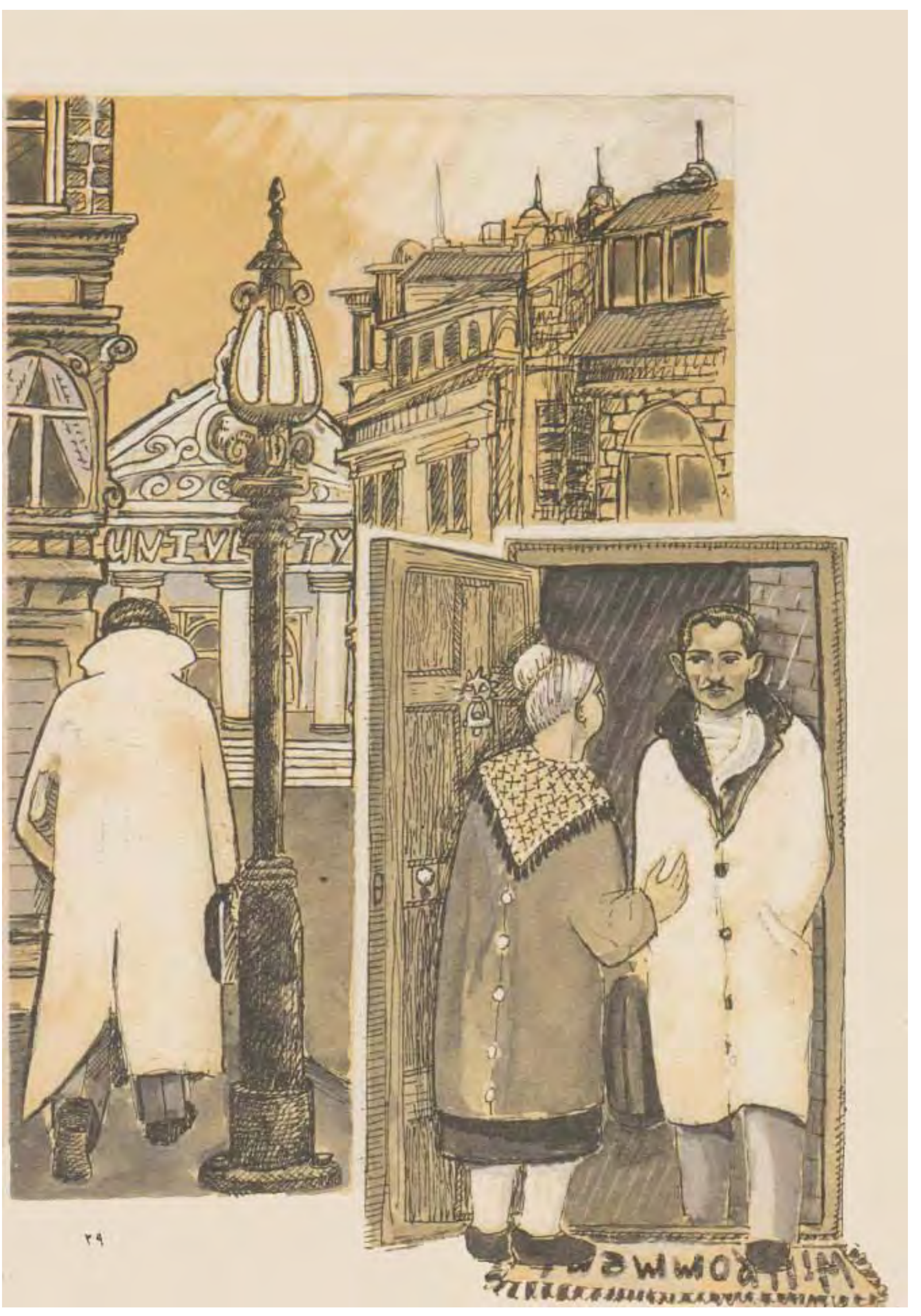
كانَ ضعيفاً نحيفاً . لا يحمِلُ حقيبةً ولا مِظَلّةً . وكانَ يرْتَجِفُ من البردِ وقدْ غطّى رَقَبتَهُ بياقةِ معطَفهِ المبللِ بماءِ المَطرِ . .

استأذنَني . بلَهْجةِ تَوَدُّدٍ لطيفةٍ ، بأنْ يستدفئَ بنارِ المدْفأة . . وَرغْمَ أنَّني لا أجيدُ اللغةَ الفرنسيةَ فَقَدْ فَهِمتُ

قصدهُ . فأشرتُ بيدي الى المقعدِ فجَلَسَ وراحَ يفْرُكُ يدَيه أمامَ النارِ . . قلتُ لنفسي وأنا أتأملهُ جيداً : «رُبما كان فرنسياً هارباً من الأَسْرِ» . ومما ضاعف من شكوكي أنه ، لكي يَشْرَحَ وضعهُ سحب جَيْبَيْ معطفه الى الخارج علامة الافلاس . . وكدْتُ أنهَضُ لأتصل بالشرطة لولا أنني . بعد مُحاولات يائسة منه ليُفهمني وضعهُ بلغةِ الاشارات ، وباللغةِ الفرنسية ، وبجواز سفرهِ ، فهمتُ أنه انسانٌ عربيٌ يريد أن يبيتَ في الفندق ، وأنهُ جائعٌ ، وأنهُ لا يملكُ مالاً ، وأنَّ هذا أول يوم له في برلين . .

انني أضحكُ على نفسي كُلما تذكرتُ ذلكَ اللقاءَ . . إذْ لم تمضِ أيام قليلةٌ حتى أصبح محمد علي أعزَّ انسانٍ على قلبي . وأنا امرأة عجوزٌ قضيتُ عمري في هذا الفُندق محرومةً من ولدٍ . وها ان عندي ولداً لا مثيلَ لهُ في الدنيا . . ولقد أقامَ هذا الشابُّ المكافحُ عندي ست سنوات كانتْ أجملَ سنيِّ حياتي . . فما أجملَ أن تَشعُرَ المرأة بأن لها في هذه الدنيا ابناً تحبهُ . . وأيَّ ابنٍ رائعٍ كانَ محمد علي ؟

كانَ شديدَ التهذيبِ . وكان خارقَ الذكاءِ . . بدليلِ أنه تعلمَ لغتنا الالمانيةَ بسرعةٍ مدهشةٍ ، رغمَ أنه كان يشتغلُ أثناءَ النهارِ عاملاً في مصنعٍ للسيارات . . وبعدَ سنتين نال شهادة «عامل ماهر» فانتقل الى مَصنعٍ لمحركاتِ الطائراتِ في ضواحي



برلين. وخلالَ ذلكَ فان اتقانهُ اللغة الالمانية أتاح لي أن افهم قصتهُ كلها.. كانَ يحدثني عن بلادهِ بحُبٍّ وَحنان.. وكانَ يُفْردُ أمامي خَريطةَ الوطنِ العربيّ ويقولُ: «هذه بلادي.. كُلُّ هذه بلادي».. ثُمَّ يُشيرُ الى مَوْقع ميناء قابُس على الشّاطىء التونسي وَيَقُولُ باسماً: اذا نَزَلْتِ بالباخرةِ في هذا الميناءِ وسافرْتِ بالسيارة الى قريةٍ صغيرةٍ اسمها القصْر. وسألتِ عن بيتِ «المختار الحامي» ووجدتِ في ذلك البيتِ أماً جميلةً وأطفالاً كثيرين فاعلمي أن هذهِ دارنا وأولئك أمي وأخواتي. سَوفَ تجَدِينَهُم في حالةِ فقرٍ شديدٍ. لكنهم كُرماءُ جداً. يعتنونَ بالازهار ويحبونَ الاغاني..

وكانَ محمد علي يحبُّ الاغاني كثيراً.. ولطالما سمعتهُ في بعضِ الليالي يغني ساعاتٍ.. وكانتْ أغانيهِ حزينةً.. وكُنتُ لا أفهمُ منها الا الحُزنَ لأنني لَمْ أستطع أن أتعلمَ منهُ اللغةَ العربيةَ.. ولكنني تعلمتُ منهُ شتيمتين: يلعن أبو الفقر.. يلعنْ ابو الاستعمار.. وكانَ يضحكُ كثيراً عندما يسمعني أرطن باحدى هاتين الشتيمتين..

وكانَ يحبُّ الموسيقى كثيراً. كانَ يصغي لأسطوانات بيتهوفن وموزارت ويخبرني بأن الموسيقى تريحُ أعصابه وتجددُ



نشاطهُ بعدَ متاعبِ العملِ في مصنعِ الطائراتِ . ومتاعبِ الدراسة المسائيةِ المتواصلة . .

وذاتَ مساء قال لي محمد علي : ليسَ لي غيركِ من أستشيرهُ في أمرٍ يهمني كثيراً . . لقدَ كتبتُ هذه الرسالةَ الى اهلي في تونسَ ، وأريد أن أترجمَ لكِ مقطعاً منها لأسمعَ رأيكِ بعدَ ذلكَ .

وقرأ في رسالته : لقدْ دخلْتُ جامعة برلين . ولكنني احترت ولم أدْرِ ما هي العلوم التي يتسنى لي أن أخدمَ بها أمتي وبلادي . فاستدللتُ من الجرائد العربية التي تصلُ الي أن بلادي متقهقرةٌ

من حيثُ حالتُها المادية والاقتصادية ، مفتقرةٌ الى جميع المشاريع الحيوية . ورأيتُ أن الأمم الأخرى لمْ ترْقَ ولمَ تبلغ الذُروة القاصية التي تبهر العقول الا من اهتمامهم بفلاحتهم وصنائعهم وتجارتهم . وهذه الفروع هي الأساس لعلم الاقتصاد فقبضتُ على هذا العلم وجعلته مَحَلَّ اهتمامي وقبلة أحلامي .

بعد ثلاث سنواتٍ احتفلنا بفوزِ محمد علي الحامي بنَيله لقبَ : دكتور في الاقتصاد السياسي من جامعة برلين . . وأظن أنهُ أول عربي يحملُ هذا اللقب العلمي الرفيعَ . .

والدكتورُ محمد علي ودعني وسافر الى تونس طائراً على جناح الشوق . . ترى ماذا فعل عندما رجع الى تونس بعد غياب استمر ثلاث عشرة سنة ؟

* * *



أول من أسّس نقابة عماليّة عربيّة

قال رئيسُ نقابة عمال ميناء تونس :

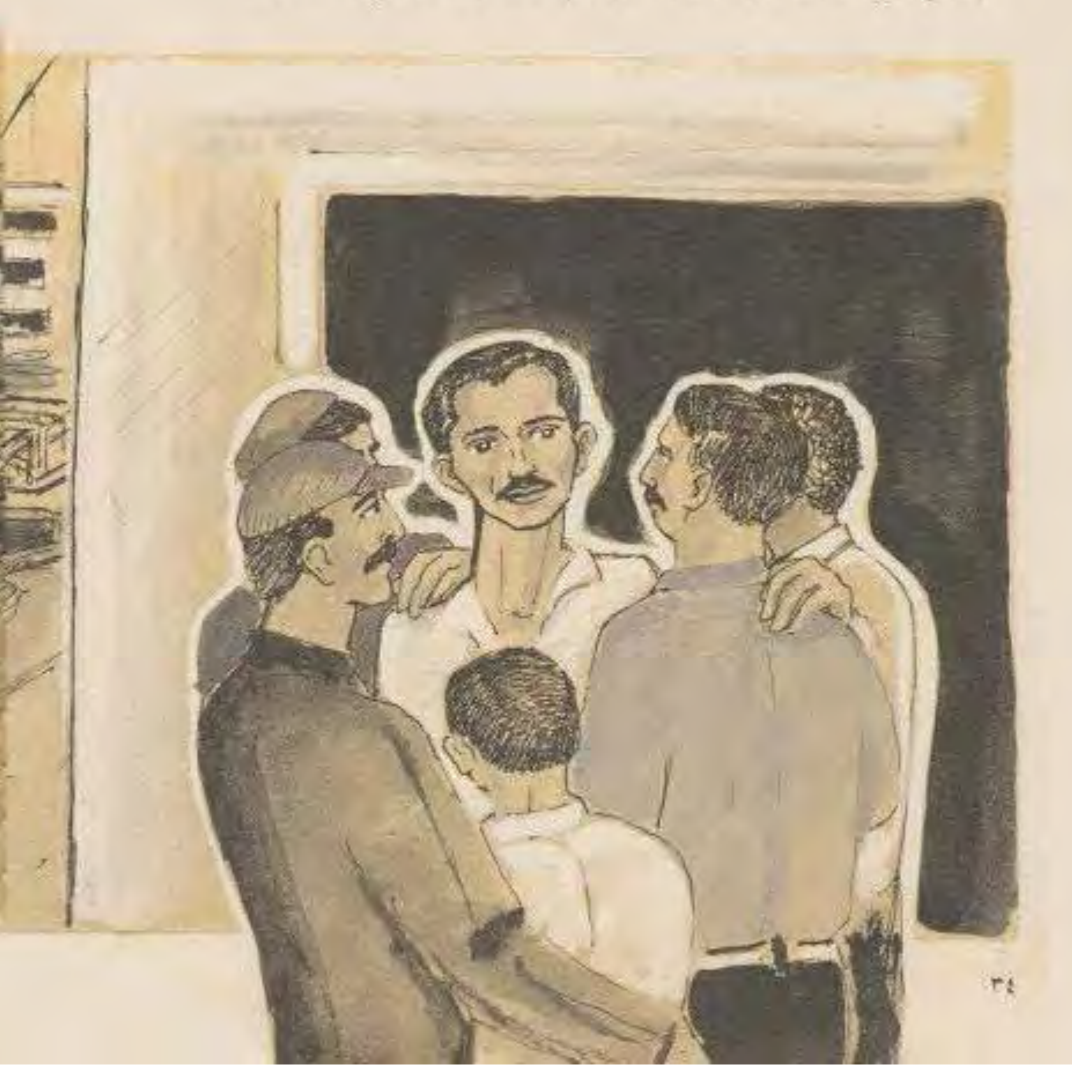
هذا الرجل ليس انساناً عادياً . . أنهُ مثلُ العاصفةِ . عاصفةٌ جاءتنا من منطقة الريف بشمال المغرب . فمحمد علي ، بعدَ أن صار دكتوراً ، لم يرجعْ الى تونسَ وانما ذهب الى منطقةِ الريف ليحاربَ المستعمرين الاسبان والفرنسيين مجاهداً بين أنصار البطل عبد الكريم الخطّابي . . ولا أعرف كم شهراً بقي هُناكَ . لكنهُ اضطر للعودة الى تونس بعدَ فشل ثورة الخطابي . ومنذ اليوم الأول لوصوله راح يتّصل بنا نحن العمال ويعرّفنا بحقوقنا ويدلّنا على الطريق الصحيح . . قال : أنتم يا عمال الميناء تشتغلونَ وتتعبونَ ، والمستثمرونَ الفرنسيونَ أصحاب شركة الميناء يقبضونَ الارباحَ الطائلةَ وهم مسترخونَ هناكَ في باريس .

سألناهُ : ما العمل يا دكتورُ ؟

قالَ : أسّسوا نقابةً لكمْ . تجمعُ شملكم . وتطالبُ

بحُقُوقكُم ، وتُدافعُ عنكم . ومثلما أن فرنسا تسمحُ بتشكيل نقاباتٍ عماليةٍ هناك . إذن عليها أن تسمحَ بتشكيلِ نقاباتٍ عماليةٍ هُنا . .

وأسّسنا نقابةً عمال ميناء تونس . فكانت أول نقابةٍ عماليةٍ في تونس . . كان ذلك في عامِ ١٩٢٤ . . والدكتور الرائع يتنقل من مكان الى مكان . ينظم الصفوفَ ويُلهِبُ القلوبَ



بالخُطَبِ الحماسيّة. فقدْ تأكّدَ للجميعِ أنّ العملَ الوطنيَّ المنظّمَ، لتحريرِ البلادِ من المستعمرِ الظالمِ والفقرِ الكافرِ، يقضي بتشكيلِ نقاباتٍ عماليّةٍ.. وما أسرعَ ما تشكّلتْ نقاباتٌ عديدةٌ.. وما أسرعَ ما اجتمعتْ هذه النقاباتُ في اتّحادٍ عماليٍّ واحدٍ أطلقنا عليه اسم «جامعة عموم عَملة تونس» وانتخبنا الدكتور محمد علي الحامي أميناً عاماً لهذا الاتحاد.. ورُبّما كان



هذا الاتحادُ الرائعُ أولَ تنظيمٍ من نوعه في وطننا العَربي كُلِّه .

كَتَبنا عَريضةً نُطالبُ فيها بنَيلِ حقوقنا من الشركةِ الفرنسيةِ التي تستثمرُ ميناءَ تونس . . فكانَ الجَوابُ أنْ هُوجمَ مكتبُ نقابتِنا بالنار . . أعلنّا الاضراب . توقّفتْ أعمالُ الميناء . . هاجَمَنا الفرنسيونَ . اشتبكنا معهم في صدامٍ عنيف . فوجئنا بنيرانِ البنادقِ الغادرة ، من فوقِ أسطحةِ المباني ، تحصدنا بقسوةٍ لا يتصورُها العقلُ . . أعلنتْ تونس كلها الاضرابَ العام تضامناً معنا . . تونس الرائعة وقفتْ وَقْفَةَ رَجلٍ واحدٍ . . تعطلتْ مصانعُ الفرنسيينَ جميعاً وتوقفتِ المواصلات . . وجُنَّ جنونُ المقيمِ العام . . وَصَدَرتْ أحكامٌ تعسفيةٌ ضد مناضلينَ كثيرين . وفي مقدّمتهم الرجلُ العاصفةُ . فقد صَدَرَ قرارٌ بابعاده عن تونس الى الأبد .

مسكينٌ أنت يا محمد علي . . بعد غيابِ ثلاثةَ عشرَ عاماً عن أهلك وبيتكَ لم تنعم بالعيش في بلدك الا شهوراً قليلةً . . ما أصعبَ حياةَ انسانٍ يُحرَمُ من وَطنِه . . ترى أين ذهبَ محمد علي ؟

* * *



قالَ رئيسُ الخدم في قصر «الباشا الكبير» في القاهرة :

رغمَ الشهادةِ العلميةِ العالية التي يحملها ذلك الشابُّ المهذبُ الخجولُ فأنه لم يجدْ في مصرَ عملاً ينتفعُ به . . الى أنْ جاء ذات يوم الى «باشانا» وعرضَ استعدادَه للعمل سائقاً لسيارته . . والباشا ما أن سمعَ محمد علي يتحدثُ إليه بالفرنسية حتى وافق على تعيينه فوراً . . وأمرَنا بأن نعاملَه بتكريمٍ خاص . فهو «تربيةُ بلاد الأجانب» . . ثم تبين له أنه لم يفهم حقيقة هذا الشاب الخجولِ الصامتِ على الأطلاق . .

فذاتَ يومٍ أعْدَدْنا في حديقةِ القصرِ تجهيزاتٍ رائعةٍ لاقامةِ حفلةِ عشاء كبرى . فالباشا يريدُ تكريمَ سفيرِ فرنسا في القاهرةِ . والمدعوون كُلهم وزراءٌ وباشواتٌ وسفراءٌ .

وَزيادةً في الحفاوةِ والتكريمِ فان الباشا أمر بأن توضعَ سيارتهُ الفخمة تحت تصرُّف السفير الفرنسي ، فيأتي الى الحفلة راكباً فيها . . وأمرني أن أبلغَ السائقَ ذلك ففعلتُ . . لكنني

فوجئتُ بهذا السائق محمد علي يَرفضُ تنفيذَ أمرِ الباشا . .

– لماذا ترفضُ يا محمد علي ؟

– لأنني أحتقرُ المستعمرين وسفراءَهم . . ومنَ المستحيل أنْ أخدمَ سفيراً طَرَدَتني دولتُه من بلدي .

حاولتُ ثَنْيَهُ عن قرارِهِ العجيبِ فازداد إصراراً على موقفِه . فنقلتُ الخبرَ الى الباشا فغضبَ واهتزَّ شارباهُ وجاءَ بنفسهِ ليحاول إقناعَ « السائق » بنقلِ السفير . . لكن محمد علي تمسَّكَ بالرفض وقال للباشا :

* لو كُنتم تعرفونَ مبلغ جرائم المستعمرينَ لخجلتم من استقبال سفرائهم في بيوتكم . .

ثم رمى مفاتيحَ السيارةِ في وجهِ الباشا وذَهبَ . . وما عُدنا سمعنا عنه خبراً . . تُرى أين ذهبَ محمد علي ؟

– جاء الى الحجاز . .

هكذا قالَ ضابط الشرطةِ الذي كان واقفاً عند الشاحنةِ المقلوبة . . ولم يقُل أية كلمة أخرى غير ذلك . . فقد كانَ قلبُه مليئاً بالحزنِ على هذا المواطن العربي الفذِّ الذي نحن في أمسِّ الحاجة لخدماته العلمية والوطنية . .

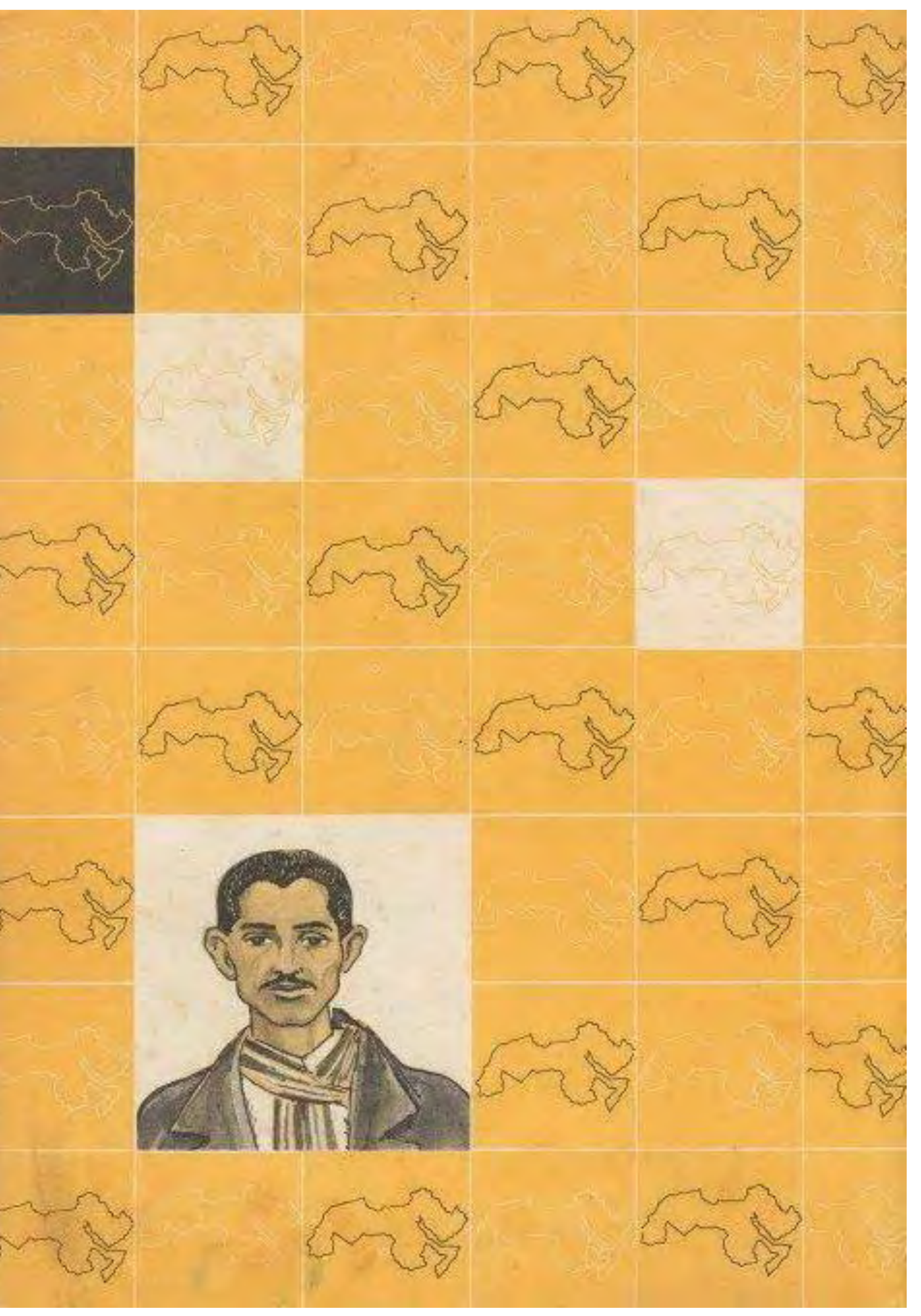
وكادَ ضابطُ الشرطة يلطمُ خدَّيهِ عندما حسبَ في ذهنه أن محمد علي عاش في الحجاز حوالي أربع سنواتٍ سائق شاحنةٍ .

عندما وَصلَ النبأ الى تونس ، بعَدَ زمنٍ ، وُجد من قالَ : كان محمد علي يحُبُّ الأسفارَ كثيراً . . وهذهِ المرةَ سافر الى المجد والخلودِ . .

* * *

وعندما استقّلتْ تونسُ ، وجلا المستعمرون عنها ، رجع محمد علي القابسي الى بلدهِ . فقد كتبوا اسمهُ على عدد من المدارسِ والشوارعِ ، ونشروا عن سيرته العظيمةِ أجمل الكتبِ . . أما قلنا لكم أنه سافر الى الخلود ؟!

* * *



الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة

الجمهورية العراقية – وزارة الثقافة والاعلام – دائرة ثقافة الاطفال – مكتبة الطفل

الناشر : دائرة ثقافة الاطفال – ص ب ١٤١٧٦ بغداد

ثمن النسخة داخل العراق ١٠٠ فلس عراقي
وخارج العراق ١٥٠ فلساً عراقياً أو ما يعادلها